



التصوف مذهبا أخلاقيا

د. عبد الحكيم غنتاب الكعبي
جامعة 7 أكتوبر

نشأ التصوف معبرا عن المثل الديني الأعلى ، وظل في أدواره المختلفة يعبر عن ذلك المثل مخالفا ما عليه العامة ، وأصحاب النحل والمذاهب الأخرى ، على الرغم من كل ما تعرض له من عداء واضطهاد ، من لدن هؤلاء وغيرهم ، ولم تخرجه تلك العداوات والاضطهادات عن حدود الحب والتسامح ، وظل وحده من بين معترك المذاهب تسامحا صرفا وسلاما في كل ما مر به من مراحل وأدوار .

وعلى الرغم من أن فلاسفة الأخلاق يستبعدون المذاهب الدينية من نطاق الدراسات الأخلاقية ، لأنها ـ في رأيهم ـ ترد الإلزام الخلقي إلى سلطة خارجية ، فإن التصوف المعتدل [1] يعد مذهبا أخلاقيا لأنه يحدد غاية الحياة ويجيب على مصدر الإلزام الخلقي . والتصوف ـ مع كونه اتجاها روحيا ـ لا يوافق التخلق والعبادة رهبة ، فهي عبادة العبيد ، ولا رغبة لأنها عبادة التجار ـ كما يقولون ـ وإنما تكون العبادة شكرا ، وتلك عبادة الأحرار . [2]

(1) التصوف المعتدل هو أصدق جوانب التصوف تمثيلا للفكرة الصوفية ، لا من حيث اتساقه مع أحكام الشرع وتعاليم الدين الإسلامي فحسب ، بل من حيث بعده عن الأصول الأجنبية ، ومن حيث كونه معبرا عن تيار إسلامي واضح . ينظر : صبحي ، أحمد محمود ، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ، ط2 دار المعارف ، القاهرة(د . ت) ص 220 وما بعدها .

(2) ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن(ت 597 هـ) ، صفة الصفوة ، دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد 1356هـ ج2 ص 53 .

من جانب آخر ، وصف الصوفية بأنهم «الذوقيون» [1] ، لأن من خصائص الطريق الصوفي أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة بالتعلم بل بالذوق والحال ، وأن سبيلهم ليس السماع والنظر وإنما المعاناة والسلوك [2] . لذلك ترك الصوفية كل نظر عقلي وطرحوا أساليب البرهان والاستدلال لأن اليقين ـ في نظرهم ـ لا ينال باستنباط المتكلمين ، فليس التصوف ، على حد تعبير أبي الحسين النوري (ت **295**هـ / **907**م) ، برسوم ولا علوم ولكنه أخلاق ، من حيث أن الصوفي لا يناقش ولا يجادل ، ولا يفترض ولا يعترض ، ولكنه يحيا حياة روحية خالصة ، تقتضي منه جمع الهمة والاستغراق الروحي [3] . لذلك فنحن هنا إزاء نزعة عملية واتجاهات أخلاقية تغلّب الجانب العملي على النظري [4] . وقد أكدت ذلك تعريفات الصوفية أنفسهم لمعنى التصوف ، نذكر منها على سبيل المثال قول الكتاني : التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء [5] . وسئل الجريري ما التصوف؟ فقال : الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني . وقول آخر : اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم أن التصوف هو الخلق [6] .

مفهوم التصوف والأخلاق

لقد قيل الكثير في أصل كلمة «تصوف» ، فمنهم من قال أنها نسبة إلى الصفاء ، أو إلى «صوفة القفا» ، بينما نسبها غيرهم إلى الصوفانة وهي بقلة ، أو إلى بني صوفة ، وهي قبيلة بدوية ، أو قولهم إن الصوفية نسبة إلى «أهل الصفة» وهم فرقة من النساك كانوا يجلسون فوق دكة المسجد بالمدينة في زمن النبي ﷺ ، أو قولهم إنهم من الصف الأول من صفوف المسلمين في الصلاة ، في حين ذهب بعضهم بعيدا ، وقال

(1) الذوق : كمنهج للمعرفة ، إصابة الحقيقة بالشهود أو العيان ، ولفظ الذوق أبلغ من الحدس ، لذا فهو يبدو معارضا لكل أثر عقلي .

(2) الغزالي ، أبو حامد ، المنقذ من الضلال ، تحقيق د . عبد العليم محمود ، ط5 دار الكتب الحديثة ، القاهرة 1385هـ ، ص32 .

(3) عفيفي ، أبو العلا ، التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة1963 ، ص23 .

(4) صبحي ، المرجع السابق ص200 .

(5) القشيري ، عبد الكريم بن هوازن(ت 465 هـ) ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، مكتبة صبيح ، القاهرة(د . ت) ص127 .

(6) المصدر نفسه والصفحة .

إنها مأخوذة من كلمة سوفوس اليونانية . وغير ذلك من آراء القدامى والمحدثين ، وفي حقيقة الأمر أن الكلمة عربية واضحة الدلالة والمعنى ، وهي النسبة إلى لبس الصوف ، وتطلق على المسلم الزاهد المتجرد لحياة الصوفية [1] .

ونتيجة لارتباط التصوف بالزهد ـ وهو نزعة قديمة لدى الأفراد أو الجماعات عبر العصور ـ ، ذهب البعض إلى القول إن التصوف لفظ جاهلي عرفته العرب قبل ظهور الإسلام للتعبير عن الزاهد . غير أن هذا اللفظ لم ينتشر إلا في العصر الإسلامي ، وتحديدا في القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد وما بعده ، ويبدو أن البحث عن أصول قديمة للتسمية ، من قبل الصوفية أنفسهم ، هو محاولة لتبرئة الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون [2] .

وعلى الرغم من أن منهج التصوف ينطلق من منطلق نظري بسيط ، هو أن العقل قاصر عن إدراك كل المدركات ، وأن علوم الحقائق أمور خفية المدارك بعيدة النور كأنها ليست من هذا العالم الظاهر ، لذلك جاء منهجهم مبني على التسليم والتصديق مقابل منهج الفقه القائم على البحث والتحقيق [3] ، فإن محاولة بناء مفهوم مطلق للتصوف ، أو وضع تعريف دقيق له ، أمر يبدو في غاية الصعوبة ، لأن ذلك يحتاج إلى ممارسة وتجربة وسلوك ومكابدة ، ولهذا نجد أن معظم تعريفات التصوف من وضع الصوفية أنفسهم ، وقد ورد في كتب التصوف عدد كبير جدا من تلك التعريفات لدرجة جعلت السهروردي ، صاحب كتاب « عوارف المعارف » [4] يقول : إن للتصوف أكثر من ألف تعريف . كما نجد أبا نعيم الأصفهاني يذكر في حلية الأولياء [5] تعريفا أو أكثر لكل صوفي ترجم له ، وقد ترجم فيه لمئات الصوفية ، وقال بمثل ذلك الإمام القشيري في « رسالته » [6] التي ترجم فيها للصوفية ، ويفرد الطوسي في كتابه

(1) ماسنيون ، لويس ، دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية ، مادة « تصوف » ، المجلد9 ص328 .
(2) المرجع نفسه ص 338 .
(3) نيكوسون ، رينولد ، في التصوف الإسلامي وتاريخه ، تعريب أبو العلا عفيفي ، القاهرة 1969 ص 21 .
(4) منشور بهامش إحياء علوم الدين للغزالي ، القاهرة 1316 هـ .
(5) القاهرة 1932ـ 1938 .
(6) الرسالة في علم التصوف ، مصدر سابق .

« اللمع » [1] أكثر من باب يتحدث فيها عن تعريف التصوف ، كما نجد الكلاباذي ، وهو من أسبق من كتبوا عن التصوف ، يورد الكثير من تلك التعريفات . [2] ومع ذلك فقد تباينت تعريفاتهم ، وتعددت لاختلافهم من جوانب متعددة منها : اختلافهم فيما يأخذون به أنفسهم من ألوان السلوك والعبادة ، ذلك أن منهم من يجعل همه خدمة الناس ، ومنهم من يجعل هدفه قيام الليل وصيام النهار ، أو تلاوة القرآن ، وما إلى ذلك من ألوان الطاعات. ومنها اختلافهم من حيث أحوالهم ومقاماتهم ، وكذلك اختلافهم في العطايا والمنح الإلهية . ونتيجة لكل هذا الاختلاف والتباين تعددت الطرق الصوفية في العالم الإسلامي ، منذ ظهور التصوف وحتى يومنا هذا ، ومن أشهر تلك الطرق :

الطريقة البكتاشية ، التي تنسب إلى الحاج بكتاش (عاش في بداية عصر الدولة العثمانية) ، والتيجانية ومؤسسها أحمد بن محمد التيجاني ، وقد انتشرت في غرب أفريقيا وبعض مدن شمال أفريقيا . والبرقاوية ومؤسسها أبو حامد العربي البرقاوي (ت 1239هـ / 1833م) وقد انتشر أتباعها في الجزائر وليبيا وبعض أقطار المشرق . والطريقة الرفاعية نسبة إلى أبي العباس بن أحمد الرفاعي المغربي وقد انتشرت في مصر . ثم الطريقة الشاذلية ومؤسسها أبو الحسن الشاذلي (ت 556هـ / 1160م) وقد انتشرت في تونس ومصر والعراق ، ولهذه الطريقة فروع عدة منها الحنفية والزروقية والبكرية والوفائية والجزولية . والعروسية وتنسب إلى أبي العباس أحمد بن عروس بن عبد الله ، وقد انتشرت في شمال أفريقيا . والعيسوية نسبة إلى مؤسسها محمد بن عيسى الفهدي السفياني وقد انتشرت في أقطار الشمال الأفريقي . ثم الطريقة القادرية ومؤسسها أبو محمد محيي الدين عبد القادر الجيلاني ، وقد انتشرت في عموم البلاد الأفريقية ، فضلا عن أقطار المشرق . والمريدية وهي منتشرة في السنغال ، والمولوية ، والنقشبندية [3] وغير ذلك من الطرق التي يلاحظ

---

(1) الطوسي ، أبو نصر السراج(ت 378هـ) ، اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقي سرور ، مكتبة المثنى ، بغداد 1380 هـ / 1960م .

(2) السلمي ، أبو عبد الرحمن ، أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، تحقيق عبد الفتاح أحمد الفاوي محمود ، القاهرة 1985 ص33 .

(3) للمزيد عن هذه الطرق ينظر : السائح علي حسين ، لمحات من التصوف وتاريخه ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، الجماهيرية العظمى 1994 ص310 وما بعدها . عبد الفتاح أحمد الفاوي

انتشارها المميز في القارة الأفريقية .

لقد وردت بعض التعريفات للتصوف تتميز بشيء من التفصيل والتعميم مثل قول الجنيد : التصوف مبني على ثمان خصال : « **السخاء والرضا والصبر والإشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر** » [1] ، إلا أن المتأمل في مجمل تعريفات التصوف يمكن أن يصنفها إلى ثلاث مجموعات :

مجموعة تتمحور حول **المعرفة** ، ومجموعة أخرى محورها **الزهد** ، ومجوعة ثالثة تختص **بالنفس** وجوهرها **الأخلاقي** .

ـ فالتعريفات التي تتخذ من « المعرفة » محوراً لها نجدها تركز على المعرفة القلبية الإلهامية لا المعرفة المكتسبة أو المعرفة الاستنباطية ، والمعرفة القلبية هي المعرفة اللدنية ، استنادا إلى قوله تعالى : ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً**﴾ [2] ، وهذه المعرفة لديهم أفضل وأصدق من المعرفة الكسبية ، التي يسمونها : علم الورق أو علم القيل والقال . [3] ومن تلك التعريفات على سبيل المثال :

ـ قول معروف الكرخي (ت **200** هـ / **815**م) التصوف : هو الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق .

ـ وقول أبي سعيد الخراز (ت **268** هـ / **881**م) الصوفي : من صفى ربه قلبه

محمود ، التصوف عقيدة وسلوك ، مكتبة الزهراء ، القاهرة 1992 . عبد المنعم الحنفي ، الموسوعة الصوفية ، دار الرشاد القاهرة 1992 .

(1) أصول الملامتية ، مصدر سابق ص 39 . ويرى بعض الصوفية أن الجنيد قصد بهذا التعريف اقتداء الصوفية بثمانية من الأنبياء عليهم السلام ، فهم في السخاء يقتدون بسيدنا إبراهيم لأنه ضحى بولده ، وفي الرضا بسيدنا إسحاق ، لأنه رضي بأمر الله ، وفي الصبر بسيدنا أيوب لصبره على بلائه ، وفي الإشارة بسيدنا زكريا ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا﴾ سورة مريم : آية 3 . أما في الغربة فيقتدون بسيدنا يحيى الذي عاش غريبا في وطنه وغريبا بين أهله ، وفي السياحة بسيدنا عيسى ، لأنه كان بسياحته متجردا من أي ملكية خاصة ، وفي لبس الصوف بسيدنا موسى لأن ملابسه كلها كانت صوفا ، وفي الفقر برسولنا الكريم محمد ﷺ وهو القائل : يا إلهي أشبعني يوما وأجعني يومين ، المصدر نفسه والصفحة .

(2) سورة الكهف : 64

(3) الغزالي ، أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، طبعة دار الشعب ، القاهرة(د . ت) ، ج3 ص 24 .

فامتلأ قلبه نورا ، ومن حل في عير اللذة بذكره الله .

ـ وقول أبي محمد سهل بن عبد الله التستري (ت **283**هـ / **896**م) الصوفي : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر [1] . إن هذه التعريفات وأمثالها تبرز جانبا هاما من جوانب التصوف وهو المعرفة الإلهامية .

المجموعة الثانية من التعريفات تركز على « الزهد » في الدنيا ، بل الزهد في الآخرة ، لأن الصوفي لا يشغل نفسه بغير الذات الإلهية ، ومن المعروف أن أول مرحلة من مراحل التصوف تبدأ بالزهد ، ومن أمثلة تلك التعريفات :

ـ قول سمنون المحب : التصوف ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء .

ـ وقول محمد بن رويم : التصوف التمسك بالفقر والإفقار والتحقق بالذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

ـ وقول الحسين النوري : الصوفي هو الذي لا يِملكُ ولا يُملّكْ .

ـ وقول الشبلي : الصوفي لا يرى في الدارين مع الله غير الله . [2] .

أما المجموعة الثالثة من التعريفات ، فهي التي جعلت من « النفس » محورا لموضوعها ، لاعتقادهم أنها أهم شيء في الإنسان وأنها مصدر الشر فيه بعد الشيطان وربما قبله . وقد تناولتها تلك التعريفات من جانبين كلاهما أخلاقي :

الأول : تخلي النفس عن الرذائل ، ويعني عندهم تنقيتها من العيوب والشوائب بقهرها ومجاهدتها وإخماد شهواتها وإذلال كبريائها وغرورها ، والثاني يكمله ، أي تحلي النفس بالفضائل .

ومن أشهر تعريفاتهم التي تتمحور حول الجانب الأول قول التستري : الصوفي من يرى دمه هدرا وملكه مباحا ، ويقول أيضا ، الصوفي من استوى عنده الذهب والمدر ، ويضيف : التصوف قلة الطعام ، والسكون إلى الله والفرار من الناس . ويقول أبو الحسين النوري : الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشر ، وآفات النفوس ، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع

(1) الشعراني ، عبد الوهاب ، الأنوار القدسية ، هامش الطبقات الكبرى ، مكتبة صبيح ، (د . ت) ص 18 .
(2) المصدر نفسه ص19 .

الحق . [1]

أما التعريفات التي تخص الجانب الثاني ، أي التي تشير إلى تحلي النفس بالفضائل الأخلاقية ، بعد خروجها وتخليها عن الرذائل ـ وهي موضوع بحثنا ـ فهي كثيرة ومتنوعة ومن أشهرها قول محمد بن علي القصاب « شيخ الجنيد » حين سئل عن التصوف ما هو ؟ فقال : «أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام» [2] وقول ذنون المصري : الصوفية قوم آثروا الله تعالى على كل شيء ، فآثرهم الله على كل شيء ، وقال بعضهم الصوفي إذا استقبله حالان أو خلقان حسنان كان مع الأحسن والأعلى . وقال أبو بشر الحافي (ت 227 هـ / 841م) إن الصوفي من صفا قلبه لله ، وقال أبو تراب النخشبي (ت 245هـ / 859م) الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء [3] ، إلى غير ذلك من الأقوال والتعريفات التي يمكننا معها القول إن التصوف مثلث أضلاعه : **العبادة ـ المعرفة ـ الأخلاق** .

الأخلاق الصوفية

لم يعرف تاريخ المذاهب الأخلاقية قوم اشتدوا في مخالفة النفس وتصفية الباطن كما فعل الصوفية ، وإذا كان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، كما يقول رسولنا الكريم ﷺ ، فليس بين طوائف المسلمين وفرقهم من جاهد النفس وخالف الهوى كما فعل الصوفية ، لا يضعف همتهم في ذلك توكل على الله ولا يفتر من عزيمتهم استناد إلى اجتبائه [4] . وكان دأب الصوفية الدائم هو مجاهدة الجسم والنفس معا ، إذ لا صفاء للنفس إلا بالقضاء على شهوات البدن ، ولا صفاء للنفس إلا بمجاهدة البدن بالجوع والسهر ، فتتحدث كتب الصوفية عن سير رجالاتهم الذين كانوا يبيتون على الطوى ليالي طوالا إلا من الماء القراح . فلا يصلح لطريق الصوفية من لا يصبر على طعام واحد لا يزيد على خبز الشعير أياما [5] . ولا يبيت الصوفي على الطوى لينام وإنما ليتابع ليله بالقيام ، فهو قانت آناء الليل ساجدا وقائما . والصوفي يفرح لغروب الشمس حيث الاستئناس بالله والاستغراق في المناجاة ، بل إن الصوفية أشد فرحا بدنو الليل من أهل

(1) أصول الملامتية ، مصدر سابق ص34 .
(2) الطوسي ، مصدر سابق ، ص45 .
(3) أصول الملامتية ، ص36 .
(4) القشيري ، الرسالة ص 48 .
(5) المصدر نفسه ص 49 .

اللهو في لهوهم [1] .

وفضلا عن الجوع والسهر ، يكثر الصوفية من الصمت والخلوة ، ذلك أن التصوف بُنيَ على أربعة أشياء : قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس [2] . إن التزام السكوت ـ عند الصوفية ـ يبعدهم عن الكثير من الرذائل التي تأتي مع كثرة الكلام ، ومن أبرز تلك الرذائل :

الخوض في الباطل ، والمراءاة ، والجدل ، والمدح ، والفحش ، واللعن ، والكذب والغيبة والنميمة والمزاح وإفشاء السر والوعد الكاذب ، إلى غير ذلك من الزلات والسقطات . وفضلا عن كل ذاك فإن طلب الصوفي للصمت ، يأتي في سياق مجاهدة النفس ، لما في الكلام من تعبير حب الظهور وميل إلى التفاخر وتميز على الحاضرين ، ومن ثم فإن الصوفي يصمت حين يجد في نفسه حلاوة الكلام إذلالا للنفس [3] .

والصوفية لا يكتفون بمحاسبة أنفسهم على ما صدر عنهم من المعاصي ، وإنما يراقبون الخطرات ويحاسبون أنفسهم على السرائر ولعل جهاد النفس أشق من جهاد البدن ، سئل التستري : أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : **الإخلاص** ، لأنه ليس لها فيه نصيب [4]

ومن أخلاق الصوفية **الشكر** ، فالصوفي إذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكره وحمده لله سبحانه تعالى ، وهو حين يشكر الخلق ، يشكرهم فقط لأنهم واسطة وليسوا سببا ، فالله هو المعطي المنعم المسبب ، لذلك كان من أخلاقهم أن يحمدوا الله ويشكرونه على أنه سبحانه قد وفقهم لطاعته والامتثال له ، وكل ذلك مرتبط بصدق وكمال توكلهم على الله . [5]

أما **التواضع** فيعد قوام الأخلاق الصوفية ، تجسيدا لقول رسولنا الكريم ﷺ

(1) الغزالي ، إحياء علوم الدين ج1 ص325 .
(2) المصدر نفسه ، ج2 ص 299 .
(3) القشيري ، الرسالة ص 59 .
(4) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ج3 ص80
(5) السهروردي ، مصدر سابق ص100 هامش الإحياء ج3 .

« **طو ن تواضع من غ منقصة ، وذل نفسه من غ مـ سكنة** » [1]، وقد فسر الجنيد التواضع بأنه خفض الجناح ولين الجانب ، ومنه أن تخضع لقول الحق مهما كان مصدره . ومن أساسيات التواضع أن لا تستكبر عن إجابة ، وأن تبدأ بالسلام على من لقيت ، وترد على من سلم عليك وأن ترضى بالدون من المجلس [2] .

ومن أخلاق الصوفية ، البِشِر وطلاقة الوجه وسماحته ، فالصوفي يبكي في خلوته ولكنه يشرق مع الناس ، وأن هذا البشر على الوجه من فيض أنوار قلبه ، ذلك أن السرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه ، وَمَثلِ فيض النور على الوجه من القلب ، عند الصوفية ، كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة ، فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح ، فإذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه . [3] وترتبط بهذه الصفة خصلة أخلاقية حميدة أخرى هي السهولة ولين الجانب وترك التعسف والتكلف ، والنزول مع الناس في أخلاقهم وطباعهم ، وقد كان الرسول ﷺ يمزح ولكنه لا يقول إلا حقا ، فكان ﷺ يقول مازحا صادقا لطيفا لصهيب « ياذا الأذنين ! » وتؤكد السيدة عائشة رضي الله عنها في هذا المقام الرائع أن رسول الله ﷺ سابقها فسبقته ، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها فقال : هذه بتلك [4] .

وعرف عن الصوفية القدرة على احتمال الأذى ومداراة الآخرين ، فاحتمال الأذى يعتمد على الصبر ، وهو عنوان الأخلاق الصوفية ، حيث يؤكدون في فلسفتهم الأخلاقية أن جوهر النفس لا يتضح إلا باحتمال الأذى ، أما المداراة ومراعاة شعور الآخرين ، فهي صفة يتمسك بها الصوفية ، إقتداء بسيرة رسولنا الكريم ﷺ ، فقد كان من حسن مداراته أنه لا يذم طعاما ولا ينهر خادما . [5]

ومن أخلاقهم القناعة ، التي يجسدونها ويعيشونها قولا وفعلا ، فمن أقوالهم الحر عبد ما طمع ، والعبد حر ما قنع ، ومن قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه ، ولو لم يكن في القناعة إلا العزة لكفى . . . الخ ، والقناعة عندهم ترتبط بالتوكل

---

(1) المصدر نفسه ص2ـ3 .

(2) محمود ، عبد القادر ، دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1978 ص 320 .

(3) السهروردي ، مصدر سابق ص52ـ53 ، محمود ، مرجع سابق ص320 .

(4) القشيري ، مصدر سابق ص ص 110ـ 112 .

(5) . السهروردي ، مصدر سابق ص23

على الله ، التوكل الذي وقوده التكسب والعمل ، لا الكسب والقعود أو الاتكال على الغير .[1]

وتميز الصوفية بصفات الابتعاد عن البخل والتقتير ، وعن الإنفاق والتبذير ، على الرغم من أن الكثير من الصوفية يميل إلى الإنفاق أكثر من جانب النظر إلى الادخار ، ذلك أن الغنى الذي في أعماقه يبعده عن التفكير في الادخار . ومن أخلاقهم أيضا الإيثار والمواساة ، وعندهم أن الصبر عند البلاء خير من الشكر عند النعمة والعطاء ، وكان موقف الإيثار خيرا من مقام القبول والتملك ، لأن الإيثار تجرد وتحرر ، وفي هذا يقول ذو النون المصري « من علامات الزاهد المشروح صدره ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود والإيثار بالقوت » [2].

وهناك صفات أخلاقية كثيرة حرص الصوفية على تجسيدها في سلوكهم قولا وعملا منها : ترك المراء والجدل والغضب إلا بحق وفي سبيل الحق ، وقد حلل القوم كيف يمحو الصفاء زبد الغل والحقد بأن ذلك يحدث عند سلامة القلب . ومن أخلاقهم التعاون في كل أمر على البر والتقوى ، في كل أمور الآخرة والدنيا ، فإذا كان المؤمن وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة ، وعندهم أن لا يصلح لقيادة المسلمين إلا رجل اجتمعت فيه ثلاث خصال « يصرف جهله عن الناس ، ويحتمل جهل الناس ، ويترك ما في أيديهم ، ويبذل ما في يده لهم » [3]. ومن أخلاقهم ترك التكلف لأنه تصنع وتمايل على النفس لأجل الناس ، ولما كان التكلف تخلفا فهو بعيد عن صراط الأخلاق الصوفية التي تنهي عن التكلف في جميع الأحوال ، وحيال جميع الأشياء ، في لقاء أو مطعم أو مشرب أو ملبس أو كلام أو دعاء أو صلاة ، بكل ما يختص بالسلوك الإنساني [4].

خاتمة

لقد كانت الأخلاق أهم ثمرة من ثمار التصوف ، وأول علامة من علامات صدقه وصحته ، ولهذا جعلها بعضهم هي كل التصوف ، وكثيرا ما يقال أن التصوف هو

(1) الغزالي ، إحياء ص ص 160 ـ 173

(2) الطوسي ، مصدر سابق ص 25 .

(3) ينظر : السهروردي ص 100 ، محمود ، مرجع سابق ص330 .

(4) الغزالي ، إحياء ج3 ص337 ، السهروردي ، عوارف المعارف ص 36 .

الخلق ، لأن الدعوة إلى الأخلاق مبثوثة في ثنايا التصوف وفي كل أبوابه ، فلا يكاد الصوفية يطرقون بابا أو حديثا فيه دون دعوة إلى الأخلاق أو الاهتمام بها . وإن مقامات الصوفية ليست سوى جماع للتربية الخلقية عندهم ، فالزهد والصبر والشكر والتواضع والخوف والرجاء والتوكل والمداراة والرضا والمحبة ، ما هي إلا قيم خلقية يحاول الصوفية الوصول إليها ، وهي ليست عندهم فضائل نظرية تأملية فحسب ، وإنما هي مجاهدات دائمة ورياضات روحية متصلة ومعايشة قائمة وسلوك فعلي يتحلى به الصوفي ، إن كان ذلك مع أبناء طائفته أو مع غيرهم من أبناء جنسهم ، لا بل إن خلق الصوفية يتحلون به مع كل الكائنات والمخلوقات الأخرى ، وهذا يدفع بالنتيجة إلى إشاعة السلم الاجتماعي ونبذ التعالي والتطرف وفرض الرأي على الآخرين بالقوة والعنف ، وبما يسهم في نشر مبادئ الدين الحنيف وإشاعة قيمه السمحاء دون إكراه أو تسلط بغيض .